الأصول اللسانية والشكلانية للنظرية السيميائية

رشيد بن مالك

جامعة تلمسان

1 - مقدمة منهجية

سنسعى في هذا البحث إلى دراسة الأصول اللسانية والشكلانية التي انبنت عليها النظرية السيميائية (مدرسة باريس) واستمدت منها مصطلحيتها العلمية مع إجراء تعديلات على مفاهيمها تقصيا في ذلك الانسجام مع التوجهات الجديدة للبحث السيميائي المعاصر. ولتحقيق هذا المقصد العلمي، ارتأينا أن نخصص القسم الأول من هذه الدراسة لبعض المصطلحات اللسانية الأساسية التي كان لها عميق الأثر في بناء الصعيد السردي للنظرية السيميائية. ضمن هذا الإطار، ضبطنا المصطلح بتحديد منحدره المفهومي في اللسانيات مراعين في ذلك الشروط التي تم بها نقله.

هذا وقد ضبطنا في القسم الثاني من هذا البحث التوجه الشكلاني الروسي العام في الممارسة النقدية، واخترنا كنموذج لهذا التيار «مورفولوجية الحكاية» "Morphologie du conte" لفلاديمير بروب. وتتبعنا في أثناء التحليل «النموذج البروبي»، فضبطنا الانتقادات التي وجهها له السيميائيون وأسسوا عليها «الرسم السردي» "schéma narratif" الذي يعد جهازا نظريا أساسيا وضروريا لفهم تنظيم الخطابات السردية.

وإذا كان هذا البحث قائما أساسا على رصد المنحدرات التاريخية للممارسة السيميائية الراهنة، فإن التأريخ لها أثار جدلا حادا في الدوائر العلمية إلى درجة أن من الباحثين وفي مقدمتهم آن إينو Anne Henault من يرى أن التفكير في التاريخ المفهومي للنظرية السيميائية سابق لأوانه.

قبل أن نناقش المسائل الواردة في بداية هذه الدراسة، يجدر بنا أن نعرض لبعض القضايا الهامة التي عالجتها الباحثة آن إينو في مقدمة كتابها الموسوم «تاريخ السيميائية»(1).

1.1 قراءة في كتاب «تاريخ السيميائية»

تورد الباحثة في البداية فقرة تستدل بها فتقول:

«حتى لو افترضنا أن قرارات كازميرز Kazimierz الصادرة في 1966 اقتصرت على إعطاء رؤية شاملة على الصعيد الدولي حول تيار من الدراسات بدأ في الواقع عقودا عديدة من قبل –في جميع أقطار العالم على وجه التقريب وفي ذات الوقت– وسبق له أن أخذ يتجذر في المدة التاريخية، فإننا نتساءل إذا كانت هذه السنوات القليلة التي شهدت بحوثا متفرقة من هنا وهناك وحاملة لمعرفة هشة لا زالت في بدايتها جديرة بكل هذا الاهتمام»(2).

وتذهب الباحثة آن إينو إلى القول بأن البحث السيميائي الذي عرف تطورا على يد أ.ج. غريماس A.J. Greimas ولا زال في تحول مستمر لا يسمح بتقديم حوصلة تاريخية حول النظرية السيميائية. وتؤسس هذا التوجه على قناعتها بأن «في المعنى II» نفي ل «في المعنى»(3). وتستشهد في ذلك بنص مأخوذ من مقدمة غريماس «في المعنى II»:

«إذا كانت بعض المفاهيم الأداتية قد استنفدت قيمتها الكشفية، فإن الأمور تجري كما لو أن مشروعا جديدا قد هُيئ سلفا، وهو بناء علم تركيب لسيميائية الجهات Sémiotique des modalités، وجدير بخلق إشكاليته الخاصة وتحديد الموضوعات السيميائية الجديدة. ويعد هذا المشروع، بعد عشر سنوات من المجهودات المبذولة، كفيلا بتحقيق الاستمرارية العلمية. وسواء تعلق الأمر بأزمة نماء أو استدارة حاسمة، فإن وجها جديدا للسيميائية بدأ يتشكل شيئا فشيئا»(4).

غير أننا نلاحظ أن التأريخ للحركة السيميائية بوصفها مشروع بحث في طور الإنجاز ضروري لموضعتها في سياقها التاريخي، وضبط معالمها الأساسية والكشف عن النظريات التي مهدت لظهورها. وهذه العملية ضرورية وكفيلة بتوجيه القارئ نحو أصولها مباشرة؛ إذ بدونها سيجد لا محالة مشقة كبيرة في استساغة هذه النصوص السيميائية التي تكاد تكون معقدة في قراءتها حتى على المتخصصين. وتتعقد الأمور أكثر فأكثر باضطراب الخطابات السيميائية المعاصرة. وهذا ما لاحظه جان كلود كوكي J.C. Coquet في دراسته الموسومة «السيميائية مدرسة باريس» عندما أشار إلى تنوع تعاريف «السيميائية» والأحاديث المضطربة حولها(5). واجتنابا للالتباسات المنجرة عن الاستعمالات الخاطئة التي تقف وراء هذا الاضطراب، جنح الباحث إلى تحديد أصولها وحقولها المعرفية بضبط

إشكالياتها البحثية وخلفياتها النظرية وإبراز مقاصدها العلمية؛ من هنا تأتي أهمية التأريخ لهذه الحركة التي تزايد الطلب على معرفتها(6).

وإننا لنرى، من خلال اطلاعنا على بعض الإنجازات السيميائية الراهنة، أن القطيعة الجذرية التي أشار إليها غريماس لم تحدث بالتخلي الكلي عن المنظومة السيميائية في أسسها وموضوع بحثها ومنهجها ومصطلحيتها، فهي بمثابة قفزة نوعية لا تدرك إلا في مشروع علمي يشكل «الفضاء الوحيد الذي يحمل فيه مفهوم التطور معنى»(7). على هذا الأساس، لا يعد كتاب «في المعنى II» (1983) نفيا لما جاء في «المعنى» (1970)، بل هو امتداد للبحوث السابقة. وإذا كان «في المعنى II» محصلة لخمس عشرة سنة من المغامرات السيميائية، فإن القطيعة، في هذا المساق، تدل على أن المعرفة تحيا بتجاوز الأخطاء لا بإثبات الحقائق. انطلاقا من هذه القناعة، أجرى أ. ج غريماس في كتابه «في المعنى II» مجموعة من التعديلات على مشروعه السيميائي، نذكر تلك المتعلقة بالهوة السيميائية الموجودة بين الفاعل البطل وفعله وسدها بمشروع رؤية جديدة حول نظرية الجهات Théorie des modalités التي كان لها عميق الأثر في بحوث جان كلود كوكي(8) وجوزيف كورتيس(9).

2 - الأصول اللسانية للنظرية السيميائية

1.2 موقع المسألة الدلالية من البحوث اللسانية

يمكن أن نقول، في البداية أن الاهتمام بالمسألة الدلالية حديث العهد. وقد تبلورت معالم البحث الدلالي بظهور كتاب «علم الدلالة البنيوي» Sémantique structurale(10) الذي يعد أول بحث في السيميائية اللسانية(11).

والحقيقة أن الدلالة في حد ذاتها شكلت قبل هذا التاريخ (1966) عائقا لم يكن من السهل تجاوز مفعولاته لاعتبارات عديدة. منها أن الدراسات اللسانية في مجال الصوتيات (مدرسة براغ) والنحو (مدرسة كوبنهاقن) تقدمت تقدما كبيرا وذلك على حساب علم المعاني الذي بقي منسيا(12). ولم يكن للباحث في تلك الفترة الحق في الكلام على المعنى. فالمعنى، على حد تعبير بلومفيلد، الذي يعزز هذا الطرح، قائم؛ الكلمات والجمل تعطي معنى، غير أن المعنى ليس شيئا نحسه باللمس(13). بعبارة أخرى، إن موضوع البحث في العلوم التجريبية نراه بالعين، فهو قابل للملاحظة observable والقياس mesurable والدلالة على عكس ذلك، إذ هي مجردة وغير ملموسة وغير قابلة للملاحظة أو القياس، لا تراها العين. وإذا كانت الدلالة مجردة، فإنه «يستحيل التقاطها علميا»(14) وبالتالي فهي لا تشكل موضوع بحث حقيقي.

غير أن التطورات التي شهدتها البحوث اللسانية ألجأت الباحثين إلى التساؤل حول الدور الذي يلعبه المعنى في منهجية وصف اللغة. إن الإجابات المصوغة في هذا الشأن قادتهم إلى الإقلال من أهمية هذا الدور إلى درجة إقصائه إقصاءا كاملا(15). ومرد ذلك إلى أن أي حديث كان يثار حول المعنى في تقدير الظاهرة اللسانية إلا وينزلق إلى إشكاليات هي أقرب إلى الفلسفة منها إلى اللسانيات.

هكذا نلاحظ أن اهتمامات اللسانيين، بصرف النظر عن الدعم المنهجي الذي قدمته نظرياتهم للسيميائية، لم تقترب من معالجة المعنى وتفرعاته اقترابا يفضي إلى التقاطه كموضوع قابل للمعرفة، بل استبعد أحيانا وبقي أحيانا أخرى محصورا في إطار الكلمة والجملة. ولهذا التوجه والتحفظ اتجاه الممارسة الدلالية مبرراته ومنطلقاته النظرية المبنية على استحالة

تلمس وفحص الدلالة كما هي الحال في تلمس الأشياء باعتبارها موضوعا مجردا وغير قابل للملاحظة(16).

إن هذا التوجه، على أهميته، يطرح إشكالا. فهو لا يقدم البديل للكيفية التي ينبغي أن ندرس بها ما نقول ونكتب ونسمع. علما بأن المتكلم لا يتكلم بالكلمة أو الجملة ولكنه يتكلم بالحديث(17). ولئن افترضنا أن الدلالة غير قابلة للمعرفة، فإننا نستطيع أن نتكلم عنها بطريقة دالة(18).

2.2 مبدأ المحايثة

بناء على ما تقدم، تسعى السيميائية إلى دراسة التجليات الدلالية من الداخل مرتكزة في ذلك على مبدأ المحايثة Immanence الذي تخضع فيه الدلالة إلى «قوانين داخلية خاصة مستقلة عن المعطيات الخارجية»(19).

وقد كرس فرديناد دي سوسير Ferdinand de Saussure هذا المبدأ اللساني في كتابه «دروس في اللسانيات العامة» في أثناء حديثه عن استقلالية اللسانيات في موضوعها ومنهجها. ويعبر سوسير عن هذا المبدأ باستناده إلى لعبة الشطرنج التي لا تحتاج دراسة قواعدها إلى البحث في أصولها(20).

وفي نفس الاتجاه يتبنى ل. هيالمسلف L. Hjelmslev مبدأ المحايثة ليؤكد على ضرورة استبعاد الوقائع غير اللسانية من عملية الوصف والنظر إلى موضوع اللسانيات باعتباره شكلا(21). انطلاقا من هذا التحديد الذي يشكل قفزة نوعية في الدراسات اللسانية، سيعمد غريماس إلى صياغة مبدأ المحايثة في البحوث السيميائية وفق منظورين. يبنى المنظور الأول على مقولة التصديق Véridiction المتمفصلة إلى محوري: المحايثة (الكينونة) والتجلي (الظاهر).

تتفرع محصلة هذه الثنائية الأساسية -في مرتبة أعلى- إلى أربع مقولات تظهر في المربع التصديقي على النحو التالي:

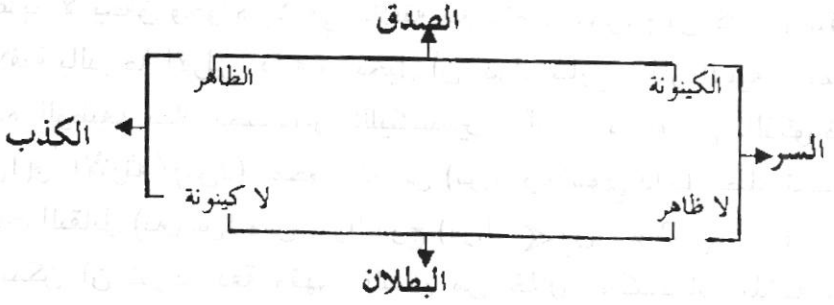

ويؤسس غريماس المنظور الثاني على المقابلة: المحايثة/السمو أين يمكن أن تسخر على الرسم السردي لإبراز تباين موقعي الفاعل والمرسل(22).

3.2 مبدأ الاختلاف

إن وصف الأشكال الداخلية لدلالة النص يرتكز على مبدأ الاختلاف dif-férence الذي أرسى قواعده ف. د. سوسير واستعمله للدلالة على أن المفاهيم المتباينة تكون معرفة ليس بشكل إيجابي من مضمونها وإنما بشكل سلبي من علاقتها مع العناصر الأخرى للنظام(23).

وقد تمثل غريماس هذا المبدأ داخل تصور جديد يقتضي فيه الاقتراب من المسألة الدلالية استيعاب الاختلافات المنتجة للمعنى دون الاكتراث لطبيعتها في إطار بنية تدرك بحضور عنصرين (على الأقل) تربطهما علاقة بطريقة أو بأخرى(24).

إن هذا التمثيل يرتكز أساسا على فرضية هيالمسلف والتي بمقتضاها يمكن فحص ماهية المضمون بالأدوات المنهجية المطبقة على صعيد التعبير. وعليه، فإن تمفصل العالم الدلالي إلى وحدات معنوية صغرى (السيمات) يناظر السمات المميزة لصعيد التعبير(25). إن السيم بوصفه وحدة دلالية قاعدية لا يحقق وجوده إلا في علاقته مع عنصر آخر. ولئن كانت وظيفته خلافية بالدرجة الأولى، فإنه يستحيل أن يدرك خارج إطار البنية. وتتمثل هذه الوظيفة مثلا بخصوص الليكسيمين «ولد» و«بنت» في /الذكورة/ (س1)و/الأنوثة/(س2) ومحور الجنس (س). وتنضوي داخل نظام تحكمه علاقات التقابل (بين س1 وس2) والتدرج (س1 ≪ س، س2 ≪ س).

يمكن أن ندرك بدقة مفهوم السيم من خلال الليكسيمات المثبتة في الجدول الآتي:

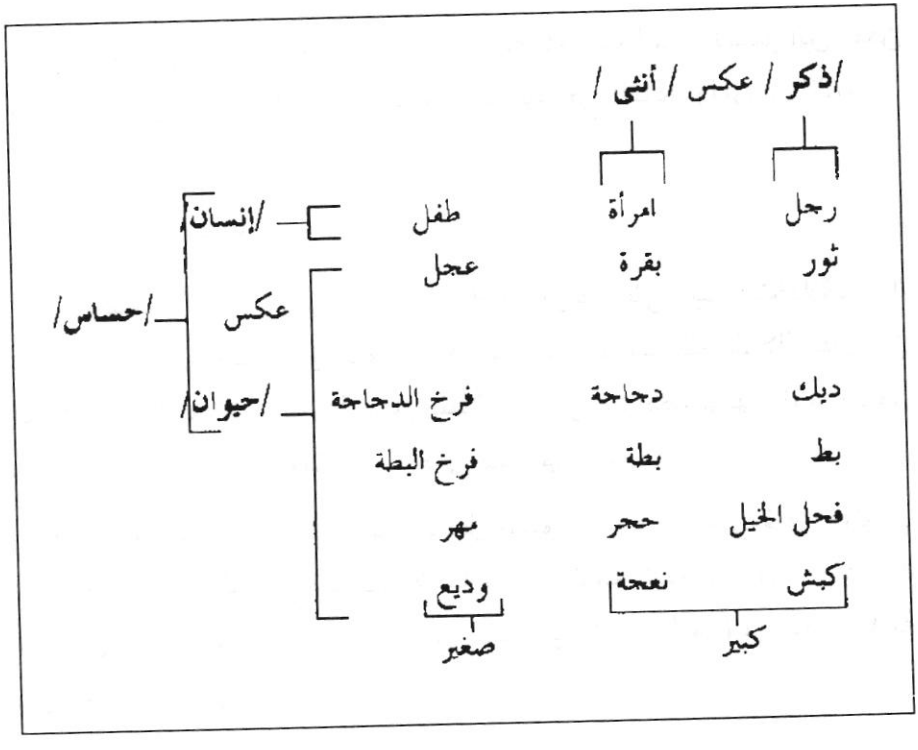

في هذا الجدول، إذا كان بإمكاننا الإقرار بوجود مقابلة بين /إنسان/ و/حيوان/؛ فلأنهما يملكان محورا دلاليا مشتركا (حساس).

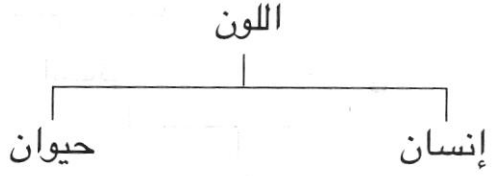

وقد وضح ابن رشد جيدا هذه المسألة في كتابة «تلخيص كتاب المقولات» عندما لاحظ، في معرض حديثه عن المتقابلات، أن: «كل متضادين، فإما أن يكونا في جنس واحد بعينه. -مثل الأبيض والأسود اللذين جنسهما القريب اللون ...»(26):

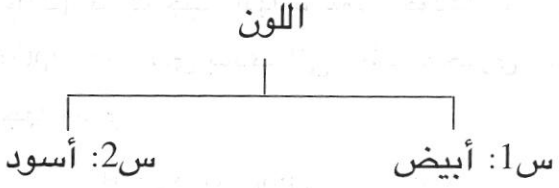

ومن الواضح أن كل جنس أو كل مقولة سيمية (س1، س2) catégorie sémique (27) يمكن أن يدخل في إطار إدماج موسع كعنصر مشكل لمقولة جديدة (س3، س4)(28):

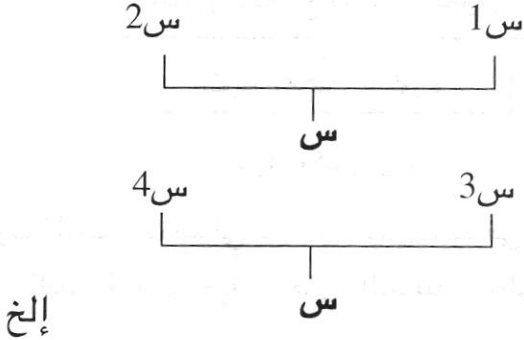

استنادا إلى الجدول أعلاه نحصل على التفريعات السيمية الآتية:

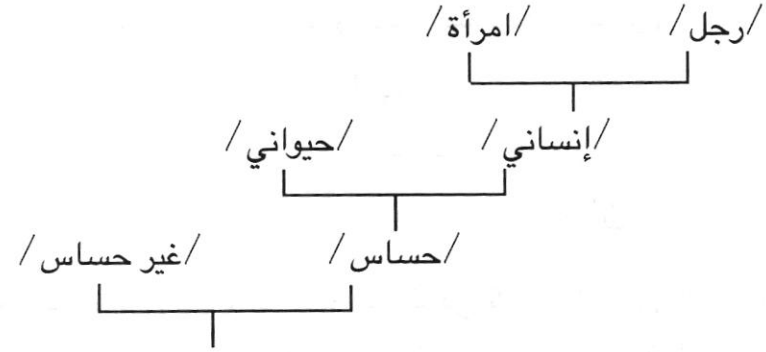

.....

إذا دققنا النظر في هذه المقولات السيمية المبنية على الوظيفة التقابلية والخلافية للسيم(29)، ندرك جيدا أنها تستمد وجودها من الوصف البنائي description structurelle الذي يهدف إلى تأطير عنصري العلاقة من جهة، والمضمون من جهة أخرى:

"A/ est en relation (s) avec /B."

"(A) في علاقة (د) بِ / B"(30)

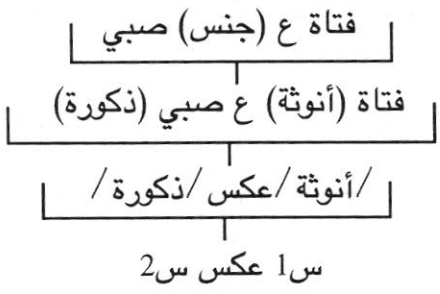

حتى ندرك المظهر الاتصالي بين س1 وس2، ينبغي أن نرقى إلى صعيد أعلى –من الناحية التدرجية– يعني الصعيد المطوق للمقولة السيمية

المحتوية على الذكورة والأنوثة. ونحصل في الأخير على /الجنس/ المعتبر كمقولة سيمية تتمفصل إلى سيمين متقابلين يحددان البنية المعنوية الصغرى. وتجسد، من هذا المنطلق، لعبة الخلافات التي تحكم الدلالة، نظاما من العلاقات:

– علاقة التقابل: س1 عكس س2: إنها علاقة قائمة بين السيمين.

– علاقة التدرج ← س1 ≪ س
← س2 ≪ س

وهي علاقة تقوم بين س1 وس2 (الجنس) باعتباره مقولة سيمية «تمفصل س1 وس2. يمكن أن نمثل نظام العلاقات (التقابل والتدرج) في مربع سيميائي يعكس الدورة الدلالية العادية المتموضعة في المستوى العميق. سنحصر في البداية التنظيم العام للمربع ونقدم خصائصه الشكلية على نحو ما أثبتها أ.ج. غريماس في كتابه «علم الدلالة البنيوي».

1.3.2 المربع السيميائي

إذا سلمنا بأن الدلالة **د** هي في الواقع تجليات لعالم دال، يمكن بالمقابل أن نتصور **دَ** متسما بغياب مطلق للمعنى ونقيضا لـ **د**. وإذا افترضنا أن المحور الدلالي **د** يتمفصل على مستوى شكل المضمون إلى سيمين متضادين Contraires:

د 1 ——— **د** 2

فإن كل واحد من هذين السيمين يحيل على نقيضه Contradictoire:

دَ 1 ——— **د** 2

بناء على هذه الإستنتاجات، يمكن أن نصوغ المربع السيميائي في الشكل الآتي:

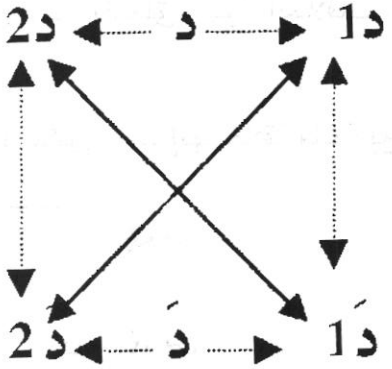

----- علاقات التضاد

——— علاقات التناقض

——— علاقات التضمن

1.1.3.2 الخصائص الشكلية للمربع السيميائي

ينظم المربع السيميائي علاقات متنوعة تتوزع على النحو الآتي:

- **العلاقات التدرجية:** تقوم العلاقة الأولى بين: **د** 1، **د** 2 و **د**. وتشمل الثانية:

-العلاقات المقولاتية:

* **علاقات التناقض:** تقوم العلاقة الأولى بين **د** و **د**. وعلى المستوى الأدنى من الناحية التدرجية، تقوم علاقة ثانية بين **د** 1 و**دَ** 1 وبين **د** 2 و**دَ** 2. ومن الواضح أن عملية النفي Opération de négation هي التي تحقق الانتقال

من **د** 1 إلى **دَ** 1، ومن **د** 2 إلى **دَ** 2، وتنبني أساسا على الاختيار بين واحد من العنصرين:

* **علاقات التضمن:** تربط **دَ** 1 بِ **د** 2 و**دَ** 2 بِ **د** 1، وتتولد بشكل طبيعي من عملية النفي السابقة، يتضمن نفي **دَ** 1 تثبيت **د** 2.

بناء على هذه المعطيات النظرية، تتجسد، على سبيل المثال، الدورة الدلالية للمحلل والمحرم في شهر رمضان على النحو الآتي(31):

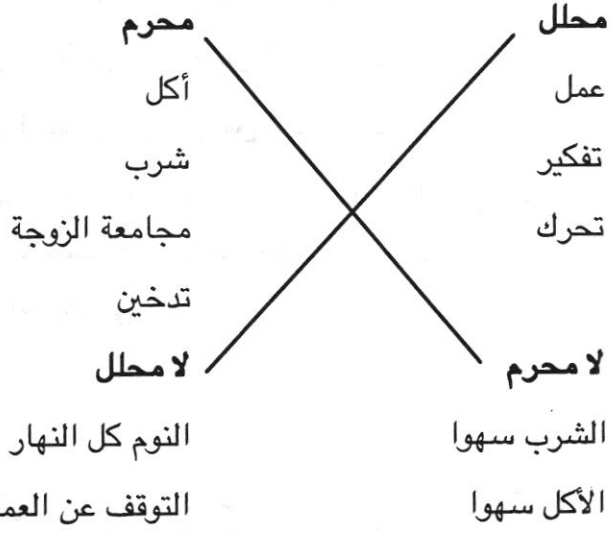

وقيد غريماس Greimas في دراسته لعالم برنانوس(32) Univers de Bernanos حركة دلالية أولى موجهة على النحو الآتي:

حياة ⟵ رفض ⟵ لا حياة ⟵ خضوع ⟵ وت

(س 1) (سَ 1) (س 2)

وقد لاحظ عملية ثانية مماثلة تنطلق هذه المرة من **س 2** لتنتج وتثبت **س 1** من خلال النفي **سَ 2**؛ مفرزة بذلك مسارا ثانيا:

موت ⟸ تمرد ⟸ لا موت ⟸ قبول ⟸ حياة

(س 2) **(سَ 2)** **(س 1)**

يشكل إحداث الترابط بين المسارين مربعا سيميائيا [ينبني أساسا على عمليات النفي والتثبيت] مؤطرا بذلك ست علاقات:

- التضاد: **س 1** عكس **س 2**، **سَ 1** عكس **سَ 2**.
- التناقض: **س 1** عكس **سَ 1** و **س 2** عكس **سَ 2**.
- التضمن: **سَ 1** عكس **س 2** و **سَ 2** عكس **س 1**.

ويلحق غريماس Greimas بعد ذلك مساري المربع ببعدين متميزين بالصدق والكذب. تأسيسا على هذا، يحتل عالم برنانوس الخصوصي مكانة متميزة في المربع السيميائي:

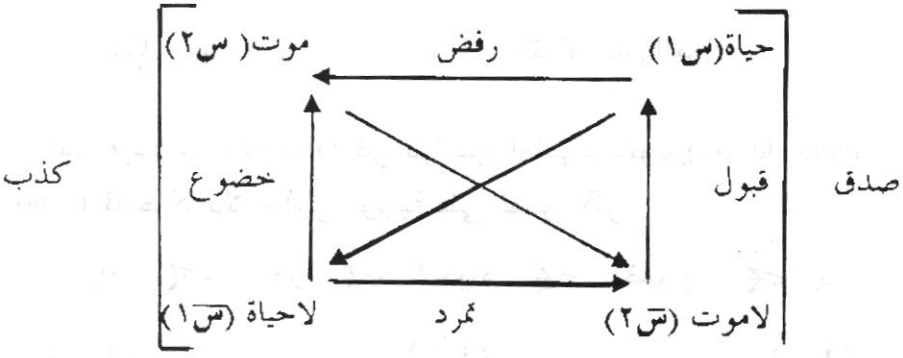

إذا دققنا النظر في بنية هذا النموذج، نلاحظ أن أ.ج. غريماس A.J. Greimas ارتكز في تحليله على عناصر ثلاثة من المربع **(س 1، سَ 1، س 2)** ارتكازا يوحي لنا بأنه التقط النص في أبعاده الثلاثة **(وضع أولي ⟵ تحويل ⟵ وضع نهائي)** التقاطا ينسجم وطبيعة النموذج السردي.

من هنا، فإن السيميائية -في استنادها إلى القواعد اللسانية- تسعى إلى بناء الدلالة من داخل النص ومن مستويات محددة تحكمها مجموعة من العلاقات والعمليات ندركها بكل وضوح في الصعيد العميق.

2.3.2 الملفوظ السردي

ولئن كان الانتقال من الصعيد العميق إلى الصعيد السطحي (المكون السردي والمكون الخطابي) مربوطا بالتحويل السردي الذي يحتوي الآليات التي تحكم الدورة الدلالية للنص (المربع السيميائي)، فإننا ملزمون بفحص الملفوظ السردي Enoncé narratif من منطلقات لسانية تقودنا إلى فهم طبيعة عمل القواعد الخلفية اللسانية في النظرية السيميائية.

انطلق جوزيف كورتيس في تحديده للملفوظ الأولي(33) Enoncé élémentaire من اقتراحات لوسيان تينيير L. Tesnière (حول «بنية الجملة البسيطة») الذي لاحظ أن **الفعل** يحتل موقعا مركزيا في الجملة الفعلية ويعمل فيها على نحو ما يظهر ذلك في الشبكة الآتية:

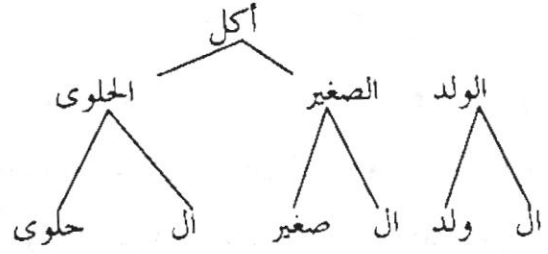

يعبر المفرع الفعلي عن مأساة صغيرة «وككل مأساة، فإنه يحتوي بالضرورة على حدث وفي أغلب الأحيان على متخاطبين وظروف. وإذا نقلنا الحدث، والمتخاطبين والظروف من صعيد الواقع المأساوي إلى صعيد التركيب البنيوي، فإننا نحصل على الفعل والعوامل والظروف. ويعبر الفعل عن الحدث كما نلحظ ذلك في الفعل «ضرب» الواقع في الجملة «ضرب ألفريد برنار».

العوامل هي الكائنات والأشياء التي تسهم في الحدث بأية صفة أو طريقة كانت وحتى بوصفها تمثلا صامتا ولو بشكل أكثر سلبية(34). انطلاقا من هذه التحديدات اللسانية لموقع الفعل في الجملة، يتضح أن نواة الجملة الفعلية البسيطة هي **الفعل** (أو الوظيفة في المصطلحية المنطقية لريشنباخ) بوصفه **علاقة بين العوامل.**

استنادا إلى التشاكل الافتراضي Isomorphisme hypothétique الموجود بين الجملة والخطاب، فإن الملفوظ الأولي، في النظرية السيميائية، يقوم أساسا على العلاقة الوظيفة **(=و)** بين العوامل (= Σ). وإذا أدرجنا العامل/الفاعل **(ف)** والموضوع **(م)** ضمن هذا المنظور، ستأخذ العلاقة الوظيفية الشكل التالي: و**(ف، م)**. تأسيسا على هذا، تشتغل العلاقة في ملفوظ الحالة على هذا النحو:

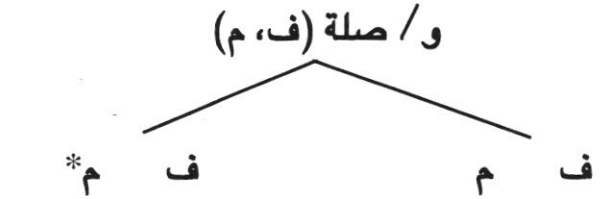

ويمكن أن نمثلها أيضا على الشكل التالي: **و**/تحويل **(ف، م)**(35).

ومن أجل دخول الفاعل في وصلة بموضوع القيمة عبر العملية التحويلية،

ينبغي أن يكون ممتلكا للمؤهلات اللازمة للقيام بالفعل. وعليه، تعد **الكفاءة** شرطا أساسيا لتحقيق **الأداء**.

وهذا يقودنا إلى معالجة رافد آخر من الروافد اللسانية في النظرية السيميائية المتمثل في الزوج **كفاءة** / **أداء** الذي يعد ضروريا لفهم آليات الرسم السردي.

3.3.2 الكفاءة والأداء

يمكن تحديد الكفاءة من المنظور الشومسكي بأنها معرفة الإنسان الضمنية بقواعد اللغة التي تقوده إلى لفظ وفهم عدد لا متناه من الجمل(36). وبالإمكان التمييز بين المعرفة باللغة من جهة، وبين استعمال اللغة الذي يسمى بالأداء الكلامي Performance(37) من جهة أخرى. فالأداء الكلامي هو الاستعمال الآني للغة في مساق معين يعود فيه المتكلم، بصورة طبيعية، إلى القواعد الكامنة ضمن كفاءته اللغوية كلما استعمل اللغة في مختلف ظروف التكلم.

ينبغي أن ننظر إلى قراءة غريماس لهذا المشروع على أنها تعديل جوهري في الاقتراب المنهجي من الظاهرة اللغوية في جانبها التواصلي واستيعاب الإرث اللساني (سوسير) وتمثله في مشروع يرتكز أساسا على المصطلحية الشومسكية التي يتبناها غريماس ويصهرها في مفهمة جديدة تولي أهمية للعناصر التي تدخل في تشكيل الكفاءة وللبعدين المعرفي والتداولي للأداء.

وعليه، إن الاقتراب المنهجي لشومسكي -على أهميته في فتح آفاق جديدة للبحث- لا يستنفذ مفهوم الكفاءة، ذلك أنه يقتصر فقط على مضمونها بوصفه نظاما من القيود Contraintes.

تأسيسا على الأداء باعتباره فعلا منتجا للملفوظات، تتجسد الكفاءة -من منظور غريماس وفي بعض جوانبها- في **معرفة الفعل**. هذا الشيء الذي يرد حدوث الفعل ممكنا. ولئن كانت معرفة الفعل حدثا بالقوة، فإنها مستقلة عن الفعل الذي يقوم عليه. بعبارة أخرى، إن الكفاءة اللسانية ليست شيئا لذاته، بل هي حالة خاصة لظاهرة أشمل تدخل في إطار إشكالية الفعل الإنساني وتؤسس الفاعل بوصفه عاملا Actant.

ضمن هذا التصور المنهجي ينظر غريماس إلى الأداء اللساني على أنه حالة خاصة ضمن إشكالية عامة تسخر لفهم النشاطات الإنسانية التي تأخذ أشكالا متنوعة في الخطابات.

ويميز غريماس على هذا الأساس بين نوعين من الأداءات: نوع يستهدف امتلاك قيم الجهة Valeurs modales، ونوع آخر يتميز بامتلاك وإنتاج القيم الوصفية Valeurs descriptives.

حتى نوضح هذه المسألة بشيء من التفصيل، سنعرض الآن للصياغة الغريماسية للمشروع الشومسكي التي يمكن أن نفهم من خلالها التفاصيل الدقيقة التي يبني عليها غريماس المفاهيم الخاصة بمصطلحي الكفاءة والأداء من المنظور السيميائي.

استنادا إلى التمييز الدقيق الذي وضعه أ.ج. غريماس A. J. Greimas بين **معرفة الفعل والفعل**، يمكن أن نقول أن كل سلوك مبرر يفترض برنامجا سرديا مضمرا وكفاءة تضمن تنفيذه. تعتبر الكفاءة من هذا المنظور: **«كفاءة جهة يمكن أن توصف كتنظيم متدرج الجهات»**(38).

وتنبني هذه الكفاءة على جهات ارادة الفعل Vouloir-faire، وجوب الفعل Devoir-faire القدرة على الفعل Pouvoir-faire ومعرفة الفعل Savoir-faire.

حتى نوضح الجهات Modalités(39) التي تدخل في تشكيلها نقدم الأمثلة الآتية:

& «أوفر لك طريقة تربح بها أكثر».

β «أريد أن أوفر لك طريقة تربح بها أكثر».

δ «أستطيع أن أوفر لك طريقة تربح بها أكثر».

Σ يجب أن أوفر لك طريقة تربح بها أكثر.

تحتوي هذه الملفوظات على فاعل [ضمير المتكلم] وأداء [الفعل «أوفر»] مشتركين، وتختلف دلالاتها من ملفوظ إلى آخر اختلافا يقوم على طبيعة العلاقة التي تربط الفاعل بفعله. يأخذ الفعل [أوفر] المسند للفعل في β، δ، Σ أشكالا مختلفة مبنية أساسا على الجهة التي تتحكم في الفعل على مستوى كفاءة الفاعل: يكون خاضعا تارة لتوجيه الإرادة (β) وتارة أخرى لجهة القدرة (δ) وأحيانا مسبوقا بجهة الواجب (Σ). وتعد هذه السوابق بمثابة القوة الموجهة والمدوزنة للفعل(40). وعليه، فإن أداء الفعل مشروط بهذه القوة التي أطلق عليها غريماس مصطلح موضوع الجهة Objet modal (41).

في الأمثلة المذكورة أعلاه، تعتبر الأفعال /أريد/، /أستطيع/، /يجب/ مواضيع جهة يعد امتلاكها ضروريا لتنفيذ أي برنامج، وتتميز عن مواضيع القيمة؛ في الملفوظ الآتي:

«أريد أن أوفر لك طريقة تربح بها أكثر».

يبدو ضمير المتكلم ممتلكا لموضوع الجهة: /**الإرادة**/ المتميز عن موضوع القيمة المستهدف /**الربح**/. يمكن أن نوضح هذا التمييز من خلال الرسم الآتي:

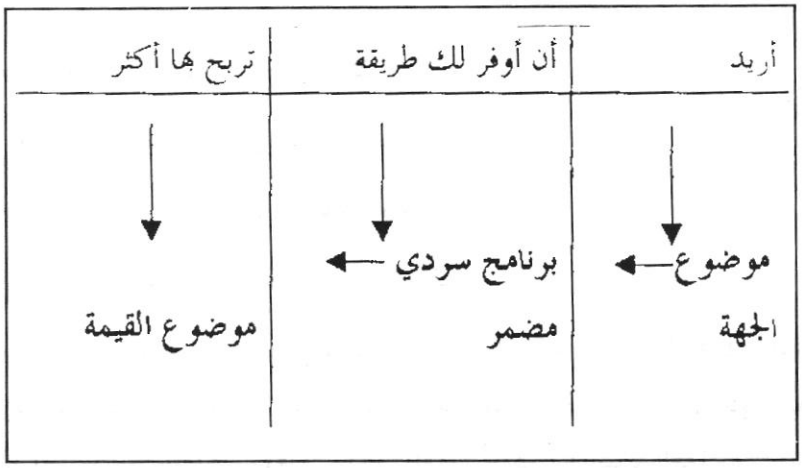

يكتسي التمييز بين الموضوعين في النظرية السيميائية أهمية بالغة؛ فهو يكشف عن آليات الكفاءة وأثرها في تحديد المسار الذي يأخذه فعل الفاعل المقترن بحقل حدثي معين، وطبيعتها من حيث إيجابيتها وسلبيتها، فهي لا تكون دائما إيجابية، قد تكون غير كافية أو سلبية على نحو ما يكون الأداء ناجحا أو فاشلا.

أشرنا في فقرة سابقة إلى أن الكفاءة يمكن أن توصف باعتبارها تنظيما متدرج الجهات. ومن الواضح أنّ هذه الجهات لا تتموضع في نفس المستوى؛ ندلل على ذلك بالعلاقة الافتراضية التي تربط جهة بأخرى على نحو ما يظهر ذلك جليا في الجدول الآتي:

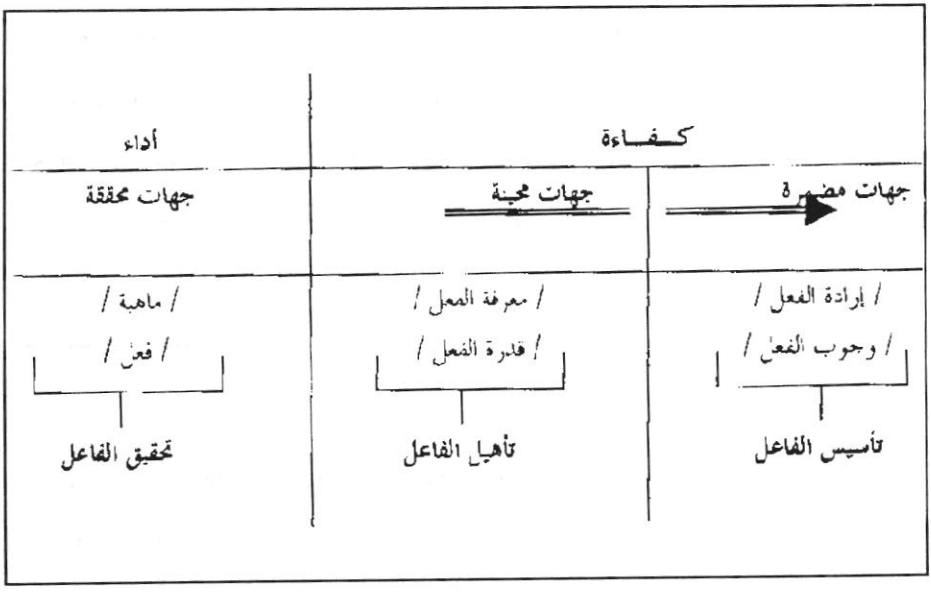

1.3.3.2- جهات الإضمار: /إرادة الفعل/ و /وجوب الفعل/

هذه الجهات التي تسهم في تأسيس الفاعل تتأطر باللحظة التي يدرك فيها الفاعل أنه /**يجب**/ أو /**يريد**/ تنفيذ برنامج معطى. غير أن هذه القيم المدوزنة للفعل لا تأتي من العدم؛ فهي تستمد حضورها من وجود مرسل تسند له مهمة تبليغها على نحو ما نلاحظ ذلك في الصياغة الإضمارية الآتية:

ف (ف 2) ⟵ (ف 1 U م ج) ⟵ (ف1 ∩م ج)(42)

ويتم تبليغ مواضيع الجهة وفق إحدى الامكانيتين.

– يتحقق التبليغ الانعكاسي Communication réfléchie بإسناد دوري المرسل والفاعل للممثل الواحد الذي يأخذ على عاتقه، من تلقاء نفسه وبعيدا عن أي ضغط أو تأثير، تنفيذ برنامج معطى.

– ويصدر التبليغ المتعدي Communication transitive عن قوى فاعلة(43) في كفاءة الفاعل.

2.3.3.2 ـ جهات التحيين: /معرفة الفعل/ و /القدرة على الفعل/

تعتبر هذه الجهات امتدادا طبيعيا لجهات الإضمار وتحتل مكانة بارزة في صلب المسار السردي المسند للفاعل. يبدو التحيين Actualisation في هذا المساق مربوطا بقيمتين أساسيتين:

– **معرفة الفعل:** تتشكل هذه القيمة المتقدمة على الفعل من تراكم الأفعال والتجارب العديدة التي يكتسبها الفاعل على امتداد المحور الزمني اكتسابا يستمد منه قدرته على توقع وبرمجة العمليات الضرورية لتنفيذ برنامج معطى(44). وتتموضع هذه القيمة على الصعيد المعرفي(45).

– **القدرة على الفعل:** تكشف هذه القيمة عن الطاقات التي يملكها الفاعل وعن استعداده: «لتنفيذ الأداء»(46).

3.3.3.2 ـ جهة التحقيق: الفعل

هذا الطور الذي يبرز الخفايا التي يضمرها كل فاعل في نص سردي معطى يعد من أدق الأطوار وأصعبها، ففيه يسقط الفاعل عناصر كفاءته

على الأداء الأساسي المحول للحالات، وفيه أيضا تختفي الأطراف المحفزة له (المرسل)(47) وتظهر الأطراف المضادة للفاعل (Anti-sujet) والمعيقة لرغبته في تنفيذ برنامجه والساعية إلى زعزعة قواعده الاستراتيجية؛ مواجهة ينشأ عنها الطابع الجدالي Caractère polémique للقصة الذي تتم عبره التحويلات الأساسية وتنشأ في إطاره المواقع الاستراتيجية للعوامل ومواضيع القيمة وتنقلاتها من طرف إلى آخر وذلك تبعا لقوة هذا الطرف وضعف الطرف الآخر. ينبغي أن نميز في هذا السياق بين نوعين من التحويلات. يسعى الفاعل في النوع الأول إلى امتلاك قيمة الجهة(48). ويرمي الفاعل في النوع الثاني إلى الدخول في وصلة بالقيم الوصفية(49) Valeurs descriptives.

ستقتصر معالجتنا للأداء على النوع الثاني. وحتى نوضح آلياته، سندرج ضمنه مواضيع القيمة التي بدونها تفقد القصة كل طابع جدالي.

4.3.3.2 - الأداء:

يتفرع هذا النوع إلى أداءين(50) متمايزين. تظهر تجليات الأداء الأول في ملفوظ سردي وصلي Conjonctif يعكس انتقال الفاعل من وضعية فصلة عن موضوع القيمة إلى وضعية وصلة به:

ف ت (ف 1) ⟵ [(ف 1 U م) ⟵ (ف 1 ∩ م)](51)

ويبتدى الأداء الثاني من خلال ملفوظ سردي فصلي Disjonctif يعبر عن انتقال الفاعل من وضعية وصلة بالموضوع إلى وضعية فصلة عنه:

ف ت (ف 1) ⟵ [(ف 1 ∩ م) ⟵ (ف 1 U م)]

يتحدد الموضوع في كلتي الحالتين في علاقته بالفاعل الواحد. يمكن أن نتساءل كيف يكون الأمر عندما تتصارع على الموضوع الواحد أطراف عديدة.

من الواضح أن الصياغة البسيطة لوضع أولي في نص سردي معطى تأخذ في أغلب الأحيان الشكل الآتي:

ف 1 U م ∩ ف 2

غير أن هذا الوضع سرعان ما يتأزم بمجرد ظهور فاعل ثالث (ف3) يسعى هو بدوره إلى الدخول في صراع مع هذا الطرف أو ذاك سعيا يترجم على الصعيد التركيبي بالملفوظ السردي المعقد Complexe الآتي:

ف ت (ف 3) ⟵ف 1 U م ∩ف 2) ⟵(ف 1 ∩م U ف 2)(52)

يمكن أن نصوغ، تبعا للموقع الذي يحتله ف3، أربع فرضيات(53):

1 - ف 3 = ف 1

تولد هذه الوضعية الملفوظ الآتي:

ف ت (ف 3 = ف1) ⟵[(ف1 U م ∩ف 2) ⟵(ف2 ∩م U ف2)]

يسند للفاعل ف 1 في هذه العملية التحويلية دوران متمايزان. تتماهى تجليات الدور الأول في الممثل Acteur بوصفه فاعل حالة منفصل عن موضوع القيمة في الوضع الأولى (ف1 U م) ومتصل به في الوضع النهائي (ف1 ∩م). يعكس الدور الثاني التحول التلقائي لـ ف 1 إلى فاعل منفذ Su-jet Opérateur يعمل وينجح (على، في) تحقيق رغبته الشخصية في تملك Appropriation الموضوع. يستعمل التملك المعتبر كعملية انعكاسية réflé-chie للدلالة على حيازة الفاعل للموضوع «بفعله الخالص»(54).

حتى نوضح بدقة التمييز بين الدورين المسندين لـ ف 1 نفرع الصياغة السابقة إلى الملفوظين الآتيين:

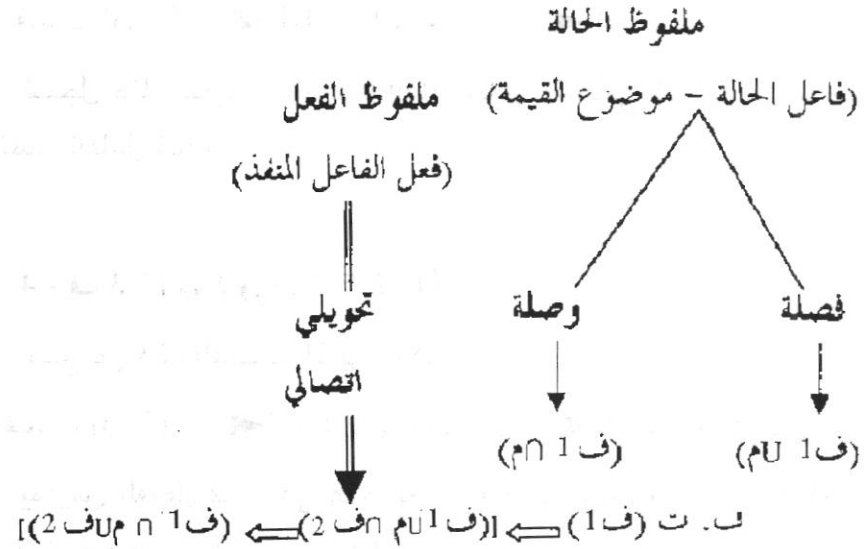

2 - ف 3 ≠ ف 1

تفرز هذه الوضعية الملفوظ الآتي:

ف. ت (ف 3) ⟵ [(ف1 ∪ م ⟵ ف 2) ⟵ (ف1 ، م ∪ ف 2)]

في هذه الصياغة، يختلف ف 3 عن ف1 من حيث الدور المسند لكل واحد منهما. ف 3 بوصفه فاعلا منفذا يقدم خدمة لـ ف 1 ويساعدة على الدخول في وصلة بموضوع القيمة الذي كان في حيازة ف 2. ويمثل هذا التحويل المتعدي Transitif في النظرية السيميائية /المنح/ Attribution الذي يعكس التحقيق الممارس في لحظة ما من مسار سردي معطى.

3 ـ ف 3 = ف 2

نحصل في هذه الحالة على الصياغة الآتية:

ف. ت (ف 3) ⟵ [(فـ1 U م، ف 2) ⟵ (فـ1، م U فـ2)]

نسجل هنا تنازل Renonciation الفاعل التلقائي (فـ2) عن موضوع القيمة للفاعل فـ1.

4 - ف 3 ⊨ ف 2 و[ف 3 = ف 1]

ينتج عن هذه الفرضية الملفوظ الآتي:

ف. ت (ف 3) ⟵ [(فـ1 U م ∩ ف 2) ⟵ (فـ1 ∩ م U فـ2)]

يمارس الفاعل ف 3 في هذه الصياغة عملية سلب Dépossession على فـ2 تتوج بحيازته على موضوع القيمة.

من الواضح أن هذه التحويلات الأربعة يمكن أن تمثل من المنظور النظمي Syntagmatique في الرسم التالي(55):

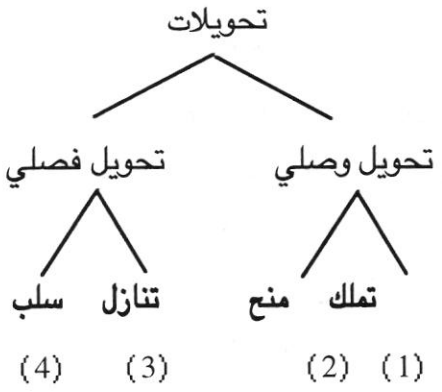

هكذا نكون قد أتينا على تطويق جميع الحالات التي يتم فيها تمرير موضوع القيمة.

بقي أن نلاحظ أن هذه الحالات تستقطب برامج سردية تشرك في آن واحد فاعلين بحيث يناسب كل **امتلاك** Acquisition **فقدانا** Privation في البرنامج الموازي؛ ويؤدي في نهاية الأمر إلى تحقيق **ملازمة** Concomitance بين:

«التملك والسلب

المنح والتنازل»(56)

تحيل على المهمة Epreuve باعتبارهما تحويلا محدثا لـ التملك والسلب، والهبة Don المنتجة للمنح والتنازل(57):

	امتلاك	فقدان
مهمة	تملك	سلب
هبة	منح	تنازل
هبة	منح	تنازل

بناء على هذه المعطيات واستنادا إلى الرسمين أعلاه يمكن أن نصوغ الجدول الآتي:

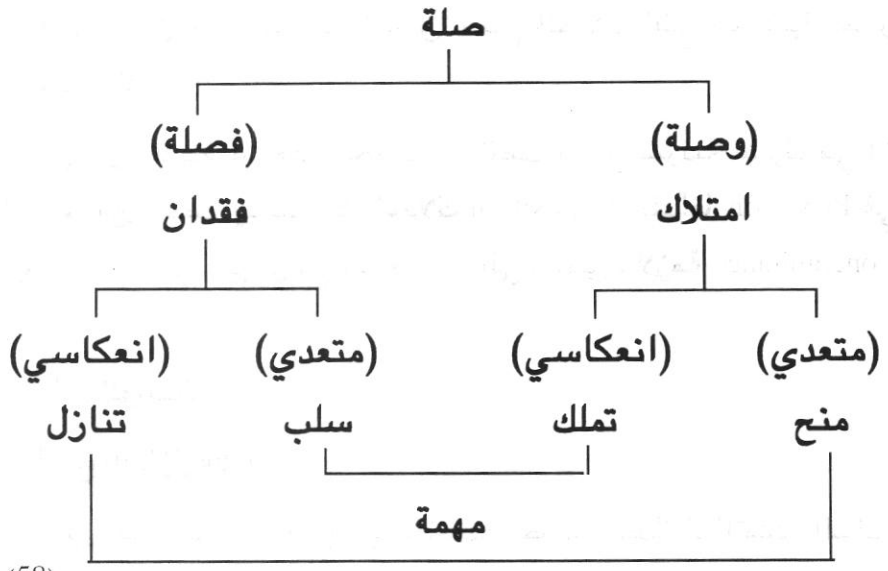

(58)

حاولنا أن نقدم في هذا القسم تصورا عاما عن بعض المنطلقات اللسانية للنظرية السيميائية عملنا من خلالها على توجيه القارئ العربي نحو أهم أصولها، وإظهار حدودها وإبراز إشكاليتها. أردنا بهذا الإسهام المتواضع أن نثير فقط السؤال حول جوهر الممارسة السيميائية، والقضايا اللسانية الأساسية التي تشكل القواعد الخلفية للبحث السيميائي المعاصر.

وسننتقل الآن إلى أرضية بحثية أخرى كان لها عميق الأثر في إثراء الصعيد السردي للمشروع الغريماسي. ضبطنا في البداية بشكل شمولي التوجه الشكلاني الروسي العام في الممارسة النقدية، وتتبعنا في أثناء التحليل النموذج البروبي Modèle Proppien، فقيدنا الانتقادات التي وجهها له غريماس وأسس عليها -بناء على هذا النموذج المتخذ كنقطة انطلاقة لبحوث السيميائيين- الرسم السردي Schéma narratif الذي يعد سندا مهما لفهم تنظيم الخطابات السردية.

3 - الأصول الشكلانية للنظرية السيميائية

لا نستطيع أن نرصد الأصول العلمية للبحث السيميائي بقطع النظر عن المظهر التنظيري العام لبحوث الشكلانيين الروس التي ظهرت خلال الحقبة الممتدة من 1915 إلى 1930 والمتميزة بمبدأ أساسي قائم على معارضتهم للمناهج التقليدية ودراسة الأدب بوصفه مجموعة شكلية تحكمها قوانين خاصة مع التركيز على العناصر النصية والعلاقات المتبادلة بينها وعلى الوظيفة التي تؤديها في مجمل النص.

ولئن اعتبر النص «معطى منفصلا عن موقع القارئ ومعزولا عن السياق التاريخي الذي هو جزء منه»(59) فإنه «مبني كلية ومجموعة مادته منظمة»(60) إن هذا التنظيم الذي ينصهر في النظام الأدبي لا يحيل على المرجع؛ فالأدب بوصفه نظاما متجانس العناصر لا يعكس التعبير المباشر لمشاعر الكاتب ولا يشكل، في جميع الحالات، إسقاطا لتجربته السيكولوجية. وقد حظيت مسألة الأشكال الأدبية -ضمن هذا الإطار المنهجي العام- باهتمام خاص. ويُعد فلادمير بروب Vladimir Propp الباحث الوحيد في الاتجاه الشكلاني الذي تعمق في دراسة الحكاية تعمقا مكنه من استخراج بنيتها. ويعتبر كتابة الموسوم «مورفولوجية الحكاية» Morphologie du conte من الكتب الحاسمة في تطور الدراسات البنيوية والسيميائية، والنموذج الأكثر نضجا في بحوث الشكلانيين.

نشير في هذا المساق إلى أن بروب لم يرض بهذه التسمية ويظهر ذلك واضحا في المساجلة التي تمت بينه وبين كلود ليفي ستروس(61) وفي غيابه عن تأسيس مركزين مهمين للنشاطات الشكلانية الروسية: حلقة اللسانيات بموسكو (1915) ومجتمع دراسات الكلام الشعري (OPOIAZ) لبيتر سبورغ (1916). ويعتبر نفسه بنيويا قبل التتويج النهائي للبنيوية. وهذا يدل

دلالة قاطعة على استقلالية بروب الشخصية بالنسبة لتأثيرات جماعة الشكلانيين. ومع ذلك، فإن هذه الاستقلالية لم تمنعه من تبني مبادئ علمية عامة تتوافق مع التوجهات الفكرية للشكلانيين الذين أرسوا قواعد علمية للممارسة النقدية (الفصل بين الموضوع والمنهج).

إن الدراسة الاستقصائية التي قام بها ف. بروب قادته إلى الإقرار بأن عدد الوظائف التي تتحكم في الحكايات الروسية تبلغ إحدى وثلاثين. ليس شرطا أن ترد هذه الوظائف التي تخضع لنظام ثابت. ويرى بروب أن تحديد الوظيفة ينبغي أن يكون بمثابة المحصلة لاعتبارين أساسيين. أولهما، تحديد الوظيفة انطلاقا من الفعل بصرف النظر عن الشخصية المنفذة له. ثانيهما: ولئن وجب فهم الفعل في السياق السردي، فإن دلالة أية وظيفة معطاة ينبغي أن تستمد من تطور الحبكة. على هذا الأساس، تعرف الوظيفة من المنظور البروبي بـ «فعل الشخصية المحدد من حيث دلالته في تطور الحبكة»(62). إن تحليل الحكاية، ضمن هذا المنظور، مرهون بوصفها وفقا لأجزاء محتواها وعلاقة هذه الأجزاء بعضها ببعض ثم علاقتها بالمجموع.

يستمد النموذج الوظائفي البروبي قوته الإجرائية من مرونته وقابلية تطبيقه على النصوص السردية. وتكمن أهميته المنهجية وفائدته العلمية في قدرته على إبراز مبدأ الاختلاف على طول الخط السردي.

استنادا إلى هذا النموذج، يمكن أن نقول إن الحكاية تبرز -ولو تحت أشكال متنوعة- تمثيلا عامليا مشروطا بطبيعة العلاقات التي تقوم بين الشخصيات والوظائف المسندة إليها في صلب القصة. وتبدو تجليات هذا التمثيل -في بعض جوانبها- واضحة في الرسم العاملي لـ أ.ج. غريماس(63):

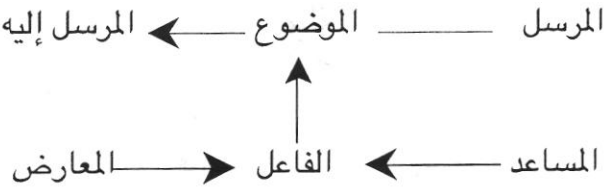

من الواضح أن ف. بروب أشار من خلال عرضه للوظائف إلى موضوع الرغبة وذلك في أثناء حديثه عن الافتقار manque(64) والانتقال إلى الهناك (...) الذي يمكن البطل من استرجاع الموضوع المفقود(65). وبالرغم من أهمية هذا المنظور المنهجي في تطوير الأدوات الإجرائية الكشفية للتحليل السيميائي، فإنه أهمل الشروط المحققة لوجود الموضوع Objet، ذلك أن طرح المسألة بهذا الشكل يحمل على الاعتقاد بأن القيمة تنصهر في الموضوع. غير أن العملية لا تتم بهذه البساطة كما لاحظ ذلك غريماس. إذ يستحيل أن يفهم الموضوع بقطع النظر عن القيمة المستثمرة فيه، فعندما يرغب الشخص في شراء سيارة فهو لا يريد امتلاكها كموضوع بل كوسيلة سريعة للتنقل. وتمتزج هذه الرغبة في الشراء بالحظوة الاجتماعية أو الإحساس الحميمي بالقوة. يبدو واضحا من خلال هذا المثال أن الموضوع ليس في الواقع إلا ذريعة، فضاء تركيبيا توظف فيه قيم(66) يرغب العامل / الفاعل Actant-sujet في تحقيقها. تعكس هذه الرغبة –المتولدة أصلا من فعل المرسل Destinateur الممارس على الفاعل– ظهور حالة افتقار Etat de manque تتسبب في فقدان التوازن على مستوى الوضع الأولي Etat initial. يتمحور تعويض الافتقار حول العلاقة **فاعل/موضوع** التي يحددها ملفوظ حالة Enoncé d'état يجسد وضعية كل عنصر في علاقته بالعنصر الآخر عبر الصلة Jonction المتمفصلة من المنظور السيمي Sémique إلى عنصرين متناقضين:

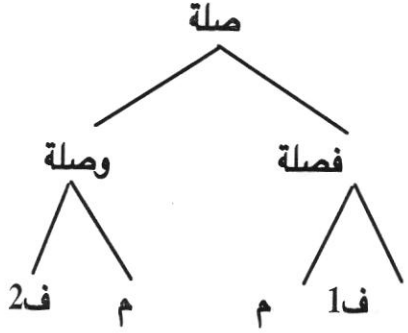

(67)

يبين هذا الرسم وجود فاعلين [ف 1، ف 2]. يحدد كل واحد لنفسه، على محور الرغبة، موضوع قيمة (م) Objet de valeur يريد امتلاكه. يتميز الوضع النهائي بدخول ف 1 وف 2، وبشكل آني، في فصلة و وصلة مع: م:

(ف1 U م) (ف2 ∩م)(68)

يهدف تحليل البنية العاملية إلى الكشف عن الوضعية التركيبية Position syntaxique لكل واحد من العوامل الموزعة على المساحة النصية. ويبدو تحديد هذه الوضعيات ضروريا لكونه يضبط العلاقات التي تنظم العوامل والتي يمكن أن تكون علاقة رغبة كالتي تربط بين الفاعل وموضوع الرغبة Objet du désir أو علاقة معاكسة كالتي تربطه بالمعارض Opposant الذي يحاول أن يحول دونه والموضوع أو علاقة متجانسة تتم على الصعيد المعرفي/الإقناعي Cognitif/Persuasif وتشمل المرسل والفاعل. وتجد هذه العلاقات نهايتها في المرسل إليه Destinataire –المستفيد الأول من عملية التحري Quête– الذي يحتل موقعا واضحا في الرسم الآتي:

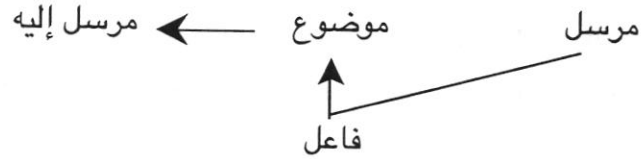

تتبدى العلاقة مرسل/مرسل إليه بمفعولاتها في محور الرغبة (فاعل/موضوع) على محور التواصل:

مرسل ——— موضوع ←——— مرسل إليه

تحكم المزدوجة: مرسل/مرسل إليه علاقة توجيهية(69) Relation d'orientation تعطى فيها الأولوية للمرسل. وتتولد التجليات الدلالية في النص من العلاقات المؤطرة للرسم السردي على نحو ما يظهر ذلك مثلا في الصياغة للإيديولوجية الماركسية على مستوى المناضل انطلاقا من رغبته في خدمة الإنسان(70).

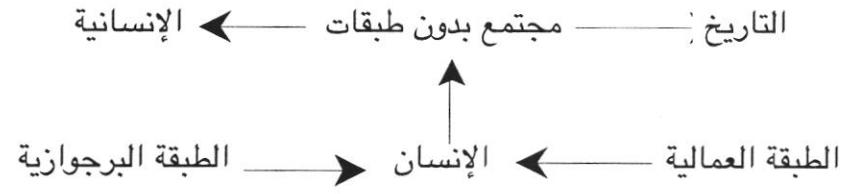

ينبغي أن نلاحظ في هذا المساق أن العلاقة بين العامل Actant والممثل Acteur مزدوجة. لو افترضنا أن تجليات العامل (ع1) تتحقق في النص عبر ممثلين (م1، م2، م3) فإنّ العكس ممكن أيضا؛ قد يتفرع ممثل واحد (م1) إلى عوامل متميزة:

(ع1، ع2، ع3)(71).

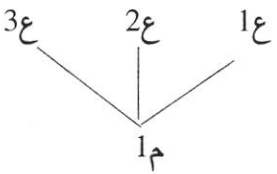

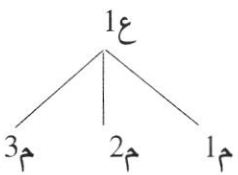

إن الفعالية الإجرائية لهذا التمييز تكمن في أنه يأخذ بعين الاعتبار تجليات العناصر الفاعلة في البنية العاملية للنص السردي، بنية تأخذ الشكل الآتي انطلاقا من الرسم السردي:

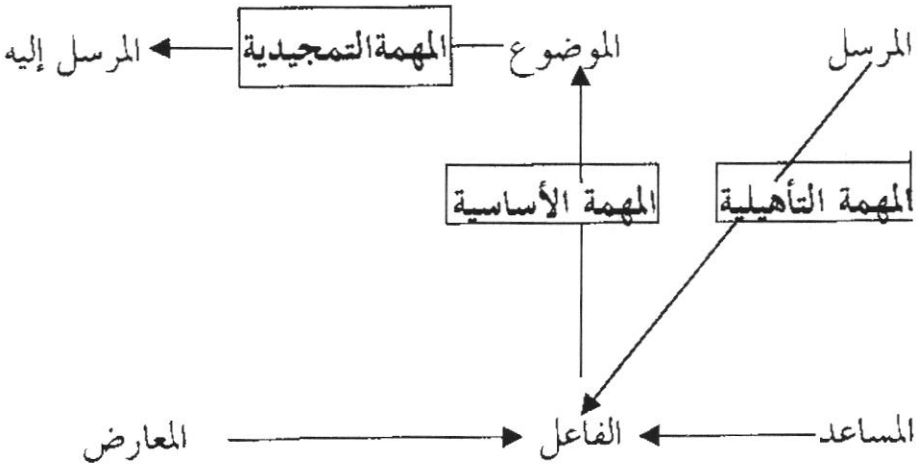

يكتسب الفاعل، خلال المهمة التأهيلية، الكفاءة وطاقة الإنجاز التي تمكنه في المهمة الأساسية من تطويق دائرة الصراع وتحقيق الموضوع وتعويض الافتقار. ويقوده نشاطه السردي في النهاية إلى المهمة التمجيدية التي يقع فيها التعرف على البطل وتقويم Sanction مساره طبقا للالتزام الذي أخذه على نفسه.

من خلال قراءتنا لهذا الرسم لا نلقى صعوبة في إبراز الدعم المنهجي الذي قدمه ف. بروب للمقاربة السيميائية والمتمثل في كشفه عن هذه المهمات الثلاثة (تأهيلية – أساسية –تمجيدية) التي تشكل نموذجا «لا تكمن

قيمته في عمق التحاليل التي تدعمه ولا في دقة صياغاته بل في نجاعة استفزازه وقدرته على إثارة الفرضيات»(72)· ويصوغ غريماس انطلاقا من هذا النموذج نتيجة مغايرة للمسلمة البروبية التي تحملنا على الاعتقاد بأن الحكاية مبنية على التتابع الكرونولوجي للمهمات، ذلك أن التمفصل المنطقي للبناء السردي يجري مجرى التتابع المعكوس، حتى ولو تعاقبت المهمات الثلاثة الواحدة تلو الأخرى على طول الخط الزمني، فإنه لا توجد أية ضرورة منطقية تعلل التحاق المهمة التأهيلية بالمهمة الحاسمة وهذه بالمهمة الممجدة. وهناك أمثلة يمكن أن تضرب على الأكفاء الذين لا ينتقلون أبدا إلى الفعل، والأعمال الجديرة بالتقدير التي لا يعترف بقيمتها أبدا. وعلى هذا الأساس، يرى غريماس أن القراءة المعكوسة كفيلة بتأسيس ترتيب منطقي من الافتراضات. تفترض المهمة التمجيدية المهمة الحاسمة التي تفترض بدورها المهمة التأهيلية: حتى يتمكن البطل من الانتقال إلى الفعل، ينبغي أن يملك المؤهلات الضرورية لذلك (الكفاءة)(73)·

بناء على هذه الملاحظات التي قيدها غريماس على النموذج البروبي، يتبنى ج. كورتيس Joseph Courtès في نفس الاتجاه رسما سرديا مبنيا أساسا على الافتراض المنطقي المعكوس. فالتقويم (أو المهمة التمجيدية) لا يفترض فقط فاعلا أدى فعلا (المهمة الحاسمة) سيحاسب عليه ولكن يفترض أيضا فاعلا آخر يقوم بعملية تقويم ترتكز على العلاقة التعاقدية Relation contractuelle الموجودة بين المرسل/المرسل إليه/الفاعل؛ إذ بناء على العقد المبروم بينهما وطبقا لالتزام الفاعل، فإن هذا الأخير يتلقى في نهاية المسار الجزاء الجدير به. لا بد أن نشير إلى أن هذه اللحظة السردية (عملية التقويم) مرهونة في وجودها بعملية الإيعاز manipulation التي يمارسها المرسل على الفاعل.

استنادا إلى النموذج البروبي والتعديلات المنهجية التي أجراها عليه أ.ج. غريماس وج. كورتيس، نحصل في نهاية التحليل على بعدين أساسيين في النظرية السيميائية: بعد معرفي يتأسس عليه الإيعاز والتقويم، وبعد تداولي ندركه من خلال عمل الفاعل.

إن العقد المبرم بين العاملين المرسل/الفاعل يقضي بالضرورة الاحتكام إلى نظام القيم (النظام الخلاقي Système axiologique) الذي يعبأ الفاعل على أساسه ويقوم عمله ويتم التحقق من تنفيذ العقد. يمكن أن يأخذ الرسم السردي، انطلاقا من هذه الملاحظات التي قدمها كورتيس(74) الشكل الآتي:

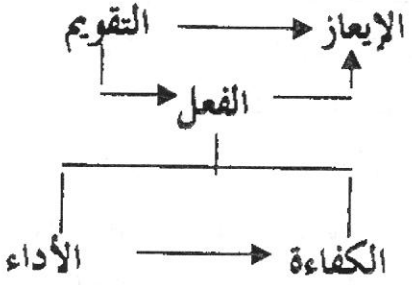

يفترض التقويم فعلا يحتل الصدارة في الرسم السردي ويحدث تفاعلات تمس العلاقات العاملية. يتمفصل هذا الفعل إلى كفاءة وأداء ويحيل على الإيعاز (بوصفه هيئة حاسمة في تحويل الكفاءة) الذي يأخذ أشكالا مختلفة تنصهر في التأثير الذي يمارسه المرسل على الفاعل في سبيل إقناعه على تنفيذ برنامج معطى. وقد ينحو الموعز Manipulateur منحى آخر كأن يلعب على أوتار مؤهلات الفاعل فيثيره أو يغريه إثارة وإغراء مقترنين بحكم سلبي (لا تملك القدرة على ...) أو إيجابي (إنك تملك القدرة على ...) على جهة من جهات كفاءته.

بقي أن نشير في النهاية إلى أن تعريف بروب للوظيفة لا ينطبق على الافتقار الذي يحيل على الحالة. ولئن كانت الوظيفة تدل على الفعل، فإن كل فعل، من منظور غريماس، يمكن أن يمثل بمسند (أو وظيفة بمعنى العلاقة في بعدها المنطقي) تمثيلا تضم إليه العوامل. وعليه، تأخذ الوظيفة البروبية شكل الملفوظ السردي الآتي:

م. س = و (ع1، ع2 ...).

وتأسيسا على هذا، يتحدد الملفوظ الأولي في السيميائية السردية بوصفه «علاقة/وظيفة بين العوامل»(75).

الهوامش:

(1) - Anne Henault, Histoire de la sémiotique, P.U.F, Paris, 1992.

(2) - Op. p. 3-8.

(3) - A. J. Greimas, Du sens, Paris, 1970.

- A. J. Greimas, Du sens II, Seuil, Paris, 1983.

(4) - Op. p. 18.

(5) - J.C. Coquet et autres, Sémiologie, L'Ecole de Paris, Paris, 1982, p. 5.

(6) - Op. p. 5.

(7) - A. J. Greimas, (1983), p. 7.

(8) - J. C. Coquet, Le discours et son sujet, T.1 et T.2, Klincksiek, Paris, 1984-1985.

(9) - J. Courtès, Analyse sémiotique du discours, Hachette, Paris, 1991.

(10) - A. J. Greimas, Sémantique structurale, P.U.F., Paris.

(11) - J. C. Coquet, et autres, op., p. 15.

(12) - حوار مع أ.ج. غريماس أجراه خليل أحمد في الموقف الأدبي، اتحاد كتاب دمشق، العدد 15 نوفمبر 1980، ص 193.

(13) - المرجع نفسه، ص 193.

(14) - G. Mowin, Clefs pour la linguistique, Ed. Seghers, Paris, 1988, p. 136.

(15) – Claude Germais, La sémantique fonctionnelle, P.U.F., Paris, 1981, p. 9.

(16) – حوار مع أ.ج. غريماس، المرجع السابق، ص 194.

(17) – نفسه، ص 194.

(18) – J. Courtés (1991), p. 52.

(19) – Ferdinand de Saussure, Cours de linguistique générale, Payot, Paris, 1972, p. 47.

(20) – Op. p. 162.

(21) – أ.ج. غريماس، المرجع السابق، ص 18.

(22) – A. J. Greimas, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette, Paris, 1979.

Groupe d'Entrevernes, Analyse sémiotique des textes, P.U.F., Lyon, 1984, p. 8.

(23) – J. Courtés (1991), p. 75.

(24) – Op. p. 27.

(25) – ابن رشد، تلخيص كتاب المقولات، حققه محمود قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1980، ص 144.

(26) – ارتكزنا في ترجمة هذا المصطلح على:

– عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1982.

– المجلة للسانيات العامة، المجلد الرابع، العدد الثاني، سبتمبر 1992، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ص 55.

(27) – A.J. Greimas, (1966, 1986), p. 54.

(28) – السيم في اصطلح ر.جاكوبسون وف. دي سوسير يعادل/السمات المميزة Traits distinctifs /و/ العناصر الخلافية Eléments différentiels. انظر:

- A.J. Greimas, (1966, 1986), p. 22.

(29) – Op. p. 21.

(30) – آن إينو، مراهنات دراسات الدلالات اللغوية، ص 106. أدرجت آن إينو /مجامعة المرأة/في خانة المحرم/. وقد أجري تعديلا طفيفا حتى ينسجم هذا العنصر والمرجعية الإسلامية.

(31) – A.J. Greimas (1966, 1986), p. 225.

(32) – J. Courtés (1991), p. 75.

(33) – Lucien Tesnière, L'élements de syntaxe structurale, Klincksieck, 1982, p. 103.

(34) – J. C. Courtés (1991), p. 77.

(35) Michel Arrivé, Cadet M. Gahuiche, La grammaire d'aujourd'hui, alphabétique- de linguistique française, Flammarion, Paris, 1986, p. 120.

(36) Op. p. 493. -

(37) A.J . Greimas, J. Courtés, (1979), p. 54 -

(38) -استندنا في نقل هذا المصطلح إلى اللغة العربية إلى ترجمة عبد المجيد أوسي، انظر: «تحليل سيميائي لنص سردي» في: دراسات سيميائية، العدد الثالث، ص 41.

(39) A.J. Greimas (1970), p. 77. -

(40) A. J. Greimas, Les acquis et les projets in:-

J. Courtés, Sémiotique narrative et discoursive, Paris, 1976, p. 17.

(41) Groupe d'Entrevernes, op. p. 35. -

(42) - يجسد القوى الفاعلة الإيعاز manipulation الذي يعد طورا أوليا في النظرة السيميائية ويستعمل للدلالة على «فعل يمارسه إنسان على إنسان ممارسة تلزمه تنفيذ برنامج معطى». انظر:

A. J. Greimas, J. Courtés (1979), p. 220.

(43) -يميز أ. ج. غريماس (1970، ص 180) بين:

أ – الفاعل العارف الذي تكون قابليته في إنجاز الأداءات، ناتجة في الأصل عن معرفة الفعل المكتسبة.

ب – الفاعل المطبوع على القوة. ويلاحظ، في هذا السياق، أن امتلاك هذه القيمة قد يتم بالحصول على أداة سحرية.

تأسيسا على هذا، تأخذ معرفة الفعل عند ج. كورتيس (1976، ص 80) شكلين:

– معرفة الفعل المكررة الصادرة عن تقليد نموذج مثالي.

–معرفة الفعل الإبداعية المولدة للفعل الإبداعي.

(44) A. J. Greimas, J. Courtés (1979), p. 321.–

(45) A.J. Greimas (1970), p. 180. -

(46) Groupe d'Entrevernes, op. p. 36. -

(47) A. J. Greimas, J. Courtés (1979), p. 271.–

(48) Op. p. 271.–

(49) - تستعمل الأداء بمفهوم التحويل المحدث لحالة جديدة. انظر المرجع أعلاه، ص 271.

(50) - ف. ت: فعل تحويلي.

(51) Groupe d'Entrevernes, op. p. 24.–

(52) Jean Michel Adam, Le récit, P.U.F., Paris, 1991, p. 60.–

(53) A.J. Greimas (1983), p. 37. -

(54) Groupe d'Entrevernes, op. p. 25.

A.J. Greimas (1983), p. 38. -

(55)- Op. p. 39.

(56)- Op. p. 39.

(57)- J. Courtés, (1991), p. 94.

(58)- إلود إيش، د. و. فوكما، مناهج الدراسة الأدبية وخلفياتها النظرية والفلسفية، تعريب محمد الهمري في: دراسات سيميائية أدبية لسانية، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، مجلة فصلية، العدد الثاني، شتاء 87 /ربيع 88، ص 22.

(59)- T. Todorov, Théorie de la littérature, textes des formalistes russes, Seuil, Paris, 1965, p. 99.

(60)- كلود ليفي ستروس وفلاديمير بروب، مساجلة بصدد: «علم تشكل الحكاية»، ترجمة محمد معصم، الدار البيضاء، 1988.

(61)- Vladimir Propp, Morphologie du conte, Seuil, Paris, 1970, p. 31.

(62)- A. J. Greimas, Sémantique structurale, P.U.F., Paris, 1986, p. 180.

(63)- Vladimir Propp, oc. p. 16.

(64)- Op. p. 63.

(65)- A.J. Greimas (1983), p. 21.

(66)- صلة: jonction

فصلة: disjonction

وصلة: conjonction

نقلنا هذه المصطلحات عن حلقة الترجمة النابعة للسيميائية الغريماسية، وقد تبيناها بناء على الحوار الذي جمعنا بالأستاذ منار حماد بباريس في سنة 1990.

(67)- يدل هذا الرمز على العلاقة الافتراضية المتبادلة présupposition réciproque بين ملفوظين.

(68)- J. Courtés, (1991), p. 99.

(69)- A. J. Greimas, (1966, 1986), p. 181.

(70)- A. J. Greimas (1970), p. 49.

(71)- A. J. Greimas, in: J. Courtés (1976), p. 10.

(72)- J. Courtés, (1991), p. 99.

(73)- Op. p. 211.

(74)- A. J. Greimas in J. Courtés, (1976), p. 7.

(75)- J. Courtés (1991), p. 76.

السيميائية: الصيرورة غير مستحبة*

الجبل الأبيض يتفتت

برنار بوتي

جامعة باريس السوربون

ترجمة: رشيد بن مالك

جامعة تلمسان

0 مقدمة المترجم

تعد هذه الدراسة من البحوث المتميزة التي قام بها بارنار بوتي في سبيل استجلاء بعض القضايا النظرية التي تمس الصعيد السطحي (المستوى السردي) للنظرية السيميائية. ولتحقيق هذه البغية، انطلق الباحث من فرضية تطورية طبيعية مبنية أصلا في حقل لساني للتأكيد على إمكانية نقلها إلى حقل سيميائي لدراسة تحويلات الأنظمة السيميائية.

بهذه القفزة النوعية، يقدم بوتي قراءة جديدة للإرث الغريماسي يثبت من خلالها أن الصيرورة قاعدة ضرورية لكل برنامج سردي. وأن الفاعل المنفذ الذي يعد محولا للحالات قصد الدخول في وصلة بموضوع القيمة (المشروع الغريماسي) ليس في نهاية الأمر إلا سببا في التغيير.

نأمل في النهاية أن تكون هذه الترجمة وفية للنص الأصلي، ونتقدم بالشكر الجزيل للباحث بارنار بوتي الذي لمسنا منه في مقابلات عديدة جمعتنا به التشجيع والوفاء لما يقول.

النص المترجم

1) من خلال النصوص: الكينونة والفعل

ينجم عن كل الدراسات المذكورة أدناه ما يدعو لبيان، على مستوى الخطاب السردي، «متتالية من الحالات المسبوقة و/أو المتبوعة بتحويلات» (C, 134 b)

تنبني ملفوظات الحالة على صلات الفاعل (ف) بالموضوع (م):

ف ∩ م　　ف U م

وصلة　　فصلة

تحكم ملفوظات الفعل، بوصفها تحويلات، ملفوظات الحالة وتشكل البرامج السردية (C, 382 a). «يمارس فاعل الفعل تحويلات تتموضع بين الحالات ... على إثر تدخل يحدد التغير» (B2, 13). «يتضمن الانتقال من علاقة حالة إلى أخرى ... اللجوء إلى تحويل، إلى فعل» (B1, 69). ويفرز هذا الفعل حالة جديدة (B2, 13-14):

ف1 ⟵ (ف 2 ∩ م)

أو

ف1 ⟵ (ف 2 U م)

الذي يمثل عداء: نحن نرى اتجاه السباق (ونستنتج إذن الحالة التي تتلو مباشرة) وندرك حدة هذا السباق (التي تدلل على وجود إشارة إلى الزمن أو إلى السرعة بدرجة أولى).

غير أن هذه المقاربات اللسانية يمكن أن تطبق بطبيعة الحال على دراسة تحويلات الأنظمة السيميائية بصفة عامة (C, 134 b).

وبما أن الزمن يعد من وجهة نظرنا الخاصة ثابتة مهيمنة (انظر: Pottier, 1980: 31-42)، فإن كل حالة تضم في صلبها عوامل تطورية: جان يشيخ، الورق يصفر، النبيذ يطيب، اللساني يتعب، يجد القارئ صعوبة أكثر فأكثر في استساغة ما تكتبه النخبة، و... الجبل الأبيض يستمر في التفتت.

ولئن كانت بعض الروايات توهمنا أننا ننطلق من وضع أولي لانجد صعوبة في تحديده. فإن الأفلام، لحسن الحظ، تخلق لنا في أغلب الأحيان شروطا نفهم من خلالها أننا إزاء تطور تتوسطه صيرورة الكينونات والأشياء والعلاقات القائمة بينها.

كيف لا نلزم السيميائي بعكس هذه المكونات في الوصف؟

تتضمن كل حالة (ح) فوريتها القبلية ($^{-}$ ح)، وتشمل إلى حد ما فوريتها البعدية ($^{+}$ ح):

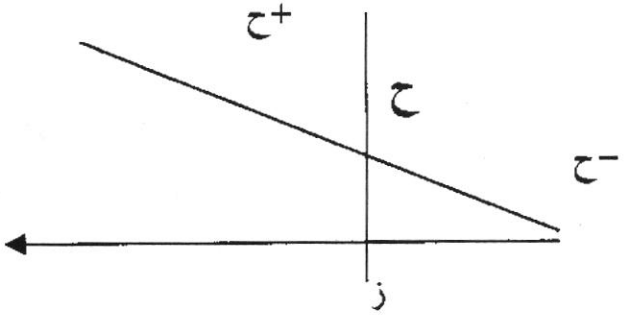

ويمكن أن يسهم المعرفي، المفترضات الوضعياتي، السياقي في تمييز هذه الفضاءات الحديثة

// - ح، ح، + ح //

تكون الصيرورة حينئذ القاعدة الضرورية لكل برنامج سردي، وقد تتجسد الحالة في الاختزال الإصطناعي الواعي والمؤقت الذي يقوم به السيميائي.

من جهة أخرى ، لا يصبح فاعل الفعل ضروريا للتغيير: فهو يوضح فقط سبب التغيير الذي فعل الكينونة «يبني، يحول، ويقوض الأشياء، والفعل الإفعالي يحرك الأشياء (C, 144 b).

نحتفظ على هذا الأساس بـ:

-ملفوظات الحالة: ف × م

- ملفوظات الفعل: مثلا: ف ⅄ فعل (ف 2 ∩ م ⟵ ف 2 U م

وهذا يفترض:

- أن الحالة موجودة

- أن تغيير الحالة يكون دائما مشروطا بفاعل إفعالي.

يستدعي هذان الإثباتان مناقشة.

2) بعض التوضيحات

يمكن أن نسجل بشيء يثير الدهشة أن المعجم لا يحتوي على مصطلح خاص بالتغيير الطبيعي: لا يتضمن التطور، والتغيير وبشكل خاص الصيرورة.

ويبدو أن الكينونة والفعل كافيان لوصف أحداث العالم من منظور متقطع الحالات أساسا: ح1، ح2، ... ح ن.

غير أننا نسجل في هذا المعجم إشارة إلى التعاقب (C, 98 a): «هذا الخطاب (السردي) الذي يموضع أداءاته بين حالتين بنائيتين أولية ونهائية قابل للمقارنة، مع مراعاة لكل نسبة بطبيعة الحال، بالعملية اللسانية التي تمارسها جماعة لسانية بين حالتي لغة».

عندما يتعلق الأمر بتغيير يتم دون تأثير الفاعل الثاني، تستدعي النظرية الانعكاسية (ف 1 = ف2): إنه الفعل الإنعكاسي (B1, 69). وقد استدل بمثال خاص بالإنعكاسية على هذا النحو:

بيار ينقل الحجرة (ف ≠ م)

انتقال بيار (ف = م)

(c, 402 b)

3) من أجل فرضية تطورية طبيعية

نعلم أن الوصف التزامني في اللسانيات، والذي ابتدعه المنظرون، ليس إلا وهما مفيدا. إن للنظام الفونولوجي مواطن ضعف، ولا استقرار (في الفرنسية مثلا: oe/é). وتنطبق ذات الملاحظة على النظام النحوي je fis / j'ai fait. ويمكن أن يوهم أخذ فلاش في 1984 بوجود شبكة متجانسة، غير أنه في الواقع يتضح أن مختلف العقد تبدي مقاومة متنوعة جدا. لنفكر في اللحظي...

4) خاتمة

يمكن أن يأخذ الرسم الذي يلخص هذه النقطة الشكل الآتي:

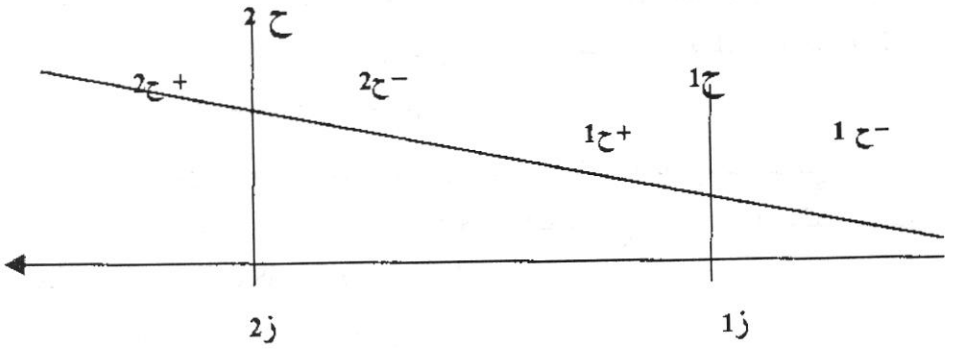

تفترض حالتان متتاليتان مدركتان «توقفا عند الصورة –الحركة» المتموضعة على تسلسل يمكن أن يكون كاملا إذا تطابق + ح1 مع ح2 في هذا الرسم، أي إذا كان الفوري البعدي للحالة 1 تماثلا للفوري القبلي للحالة2.

ويمكن أن تكون هذه الصيرورة الطبيعية دائما مبررة بفاعل خارجي يدفع بشكل مفرط إلى التطور المشكل للكينونة والأشياء. فهو ينزع حينئذ «منزعا طبيعيا» (قارن بـ: علم البيئة) أو يجري في اتجاه «معاكس للتيار». نحن إزاء «ميزان قوى» يبدو مماثلا لما يحدث في الفيزياء.

لقد سبق وأن دافعنا في إطار عام عن هذا الموقف في «غيوم والطاو: القبل والبعد، اليانج واليين (Pottier 1980 b, 19-61).

الأشياء لا تكون بل تصير.

الإحالات

(*) - Bernard POTTIER, Un mal-aime de la semiotique: le devenir in exigences et perspectives de la sémiotique. Recueil d'hommage pour A. J. Greimas, H.G. Ruprecht éd. Amsterdam/Philadelphie, John Benjamins, 1985; 2 vol., pp. 499-503.

– Courtès J., 1976, Introduction à la sémantique narrative et discursive, Paris, Hachette, (B1).

- Greimas A.J., 1973, "Un problème de sémiotique narrative: les objets de valeur", Langages, 31, pp. 13-35 (A).

- 1976, Préface (à B1), pp. 5-25, (B2)

- 1983, Du sens II: Introduction, pp. 7-18, Paris, Le Seuil (D).

- Greimas A.J. et J. Courtès, 1979, Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Paris, Hachette (C).

- Pottier Bernard, 1980, "Temps et espace", Tralili, Stasbourg, 18.

- 1980 b "Guillaume et le Tao: l'avant et l'après, le yang et le yin" in: Langage et psychomécanique du langage, Presses Universitaires de Lille: Lille.

ثبت المصطلحات

réflexivité	انعكاسية
programme narratif	برنامج سردي
après	بعد
Structurel	بنائي
synchronique	تزامني

diachronie	تعاقب
paramètre	ثابت
état	حالة
sémiotique	سيميائي
sémiotique	سيميائية
jonction	صلة
devenir	صيرورة
pronominal	ضميري
sujet	فاعل
faire factitif	فعل إفعالي
hypothèse	فرضية
immédiatement-après	فورية بعدية
immédiatement-avant	فورية قبلية
disjonction	فصلة
phonologie	فونولوجي
avant	قبل
instantané	لحظي
Objet	موضوع
conjonction	وصلة
système	نظام